

مفهوم النص لدى القدامى

د. مزيل سمية - كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة جبالتي لياس (سيدي بلعباس)

عنهزم النص في المفهوم العربي القديم

جاء في لسان العرب: " النص: رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصاً، وكل ما أظهر فقد نصّ. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجلاً أنص للحديث كالزهرى: أي أرفع وأهد. يقال: نصّ الحديث، إلى فلان أي رفعه، وكذلك نصصه إليه، ونصت الظبية حياها: رفعت. .. النص الإسماعيلي الرئيس الأكبر. والنص التوقيف: والنص التبعين على شيء ما ونص الأمر مثلاً... ونص الرجل نصاً إذا سأله عن شيء حتى يستقصى ما عنده. وينصهم أي يستخرج رأيهم ويظهره، ومنه قول الفقيه: نص القرآن ونص السنن، أي ما دل على ظاهر لفظهما عليه من الأحكام".¹

أما الجوهري فنص كل شيء عنده هو منهاه²، "نص الشيء حركة، ونصنص لسانه إذا حركه، والهندسة تحركه اليمير إذا نهض من الأرض"³، فدلالة مادة "ن ص" ص "هيدة عما تنحوض فيه المراسم الحديثة، ولا نكاد نجد دلالة قوية في نص ابن منظور، بل إن معنى النص بقي محصوراً في الإشارة إلى الكتاب والسنة، إضافة إلى دلالات أخرى بعيدة عن الدلالات الحديثة.

النص إذن هو كل ما دلّ على الرفع والإظهار متجلباً في فعل الكلام الذي يتجلى

في الصوت أو الكتابة.

النص اصطلاحاً:

إن الباحث عن مفهوم النص في الاستعمال اللساني العربي القديم يجده بأرجح ضمن جملة من المفاهيم التي تؤدي معناه، وهي: الجملة، الكلام، القول، التبليغ، النظم والحكاية. وقد شكلت هذه المفاهيم لبنة أساسية لتكوين النظرية اللغوية العربية. والنص هذا الذي شكلته لغة القرآن باعتبارها " المؤسسة التي انتظمت نشاطات العقل العربي، وهذا النظر هو النقصى حقا إلى الوقوف على نمط تفكير القوم وطريقة اجتماعهم وطابع سياساتهم، وإذا كان الحضارة الغربية قد انطلقت مما يسمى بالأحوية اليونانية، التي قفرت بالذكور من المستوى الخرافي إلى المستوى العقلي، فإن الأحوية اللغوية هي التي صنعت الحضارة العربية الإسلامية"^{١٧}.

والمنطق عليه أن لنص دور فعال في نقل الحضارة وسيرورتها، وقد صرح نصر حامد أبو زيد أن: «الحضارة المصرية القديمة هي حضارة ما بعد الموت وأن الحضارة اليونانية هي حضارة العقل، أما الحضارة العربية الإسلامية فهي حضارة النص»^{١٨} فالنص هو الذي حفظ الحضارة الإسلامية.

-- مفهوم النص من مفهوم البيان لدى القدامى:

ترددت مفردة "ب، ي، ذ" أكثر من مائتان وخمسون مرة في القرآن الكريم، وهي كلمة عربية، بنى على أساسها علم من علوم البلاغة هو علم البيان. قسم علماء البلاغة البيان إلى علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع، وتجدر الإشارة إلى أن علماء البلاغة لم يكن لهم قصب السبق في تناول البيان، وإنما سبقهم إليه علماء اللغة والنحو وعلم الأصول والكلام، إذ أنه لم تحصل صياغة نهائية لهذا العلم لدى البلاغيين إلا مع السكاكي (ت 626هـ)^{١٩} فإذا تأمنا ما قبل السكاكي نجد أن البيان كان محصوراً في الفهم والإفهام مما يهدف إلى التبليغ.

قسم أحد الباحثين مجال الدراسة في البيان إلى مستوى يهتم "بقوانين تفسير الخطاب"، ومستوى يعنى "بشروط إنتاج الخطاب"^{vi}.
المستوى الأول لدى القُداسي يمثلُه الإمام الشافعي (ت 204هـ) والمستوى الثاني يمثلُه الجاحظ (ت 255هـ).

- مفهوم البيان من مفهوم النص عند الإمام الشافعي:

دراسة الإمام الشافعي تجاوزت من سبقه ومن عاصره في تناول البيان بالبحث ذلك أنه لم تقتصر دراسته على الوجه البلاغي للبيان وإنما تجاوزته إلى العناية "بالمضامين التشريعية في الخطاب القرآني وكيفية استخلاص هذه المضامين واستنباطها وكان بذلك أول واضع لقوانين تفسير الخطاب البياني ومن ثم المشروع الأكبر للعقل العربي"^{viii}.
فالشافعي كان منهجه في تناول البيان قريباً من المفهوم الحديث للخطاب.

والبيان عند الإمام الشافعي "اسم جامع لجميع مجتمعة الأصول متشعبة الفروع. فقل ما في ذلك المعاني المجمعة المتشعبة أنها بيان لمن خاطب به مما نزل القرآن بلسانه، مغفارة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيداً لبيان من بعض مختلفة عند من يجهل لسان العرب"^{ix}، فمفردة بيان تجاوزت دلالتها المعجمية إلى دلالة أخرى الغرض منها الإفهام إذ هو يضم خطاباً يحمل هذا الخطاب دلالات يشترك فيها طرفا هذه الرسالة مجسدان في الباطن والمتلقي، ذلك أن الله عز وجل خاطب العرب في كتابه "على ما تعرفه من معانيها، وكان مما تعرفه من معانيها اتساع نساها، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يراد منه العام المظاهر ويستعني بأول هذا عنه عن آخره، و عاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص: فيستدل على هذا ببعض ما خاطب به فيه، و عاماً ظاهراً يراد به الخاص. وظاهراً يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره، فكل هذا

موجود عنده في أول الكتاب أو وسطه أو آخره^{١٢}؛ فمن حكمة الخالق أن خاتب القوم بلغتهم وفق مستويات تفقيهم لها.

المعلوم أن " وتسمى (العرب) الشيء من كلامهاير أن أول لثنتها فيه عن آخره، وتسمى الشيء بين آخر لفظها منه عن أوله، وتكلم الشيء بالشيء تعرف بالشيء دون الإيضاح باللفظ. كما تعرف الإشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لا تغراد أهل علمها به دون أهل جهالتها، وتسمى الشيء الواحد بالأسماء الكبيرة، وتسمى الواحد بالسماني الكبيرة^{١٣}، وهو ما يجرنا إلى الحديث عن ظاهرة الاتساع في اللغة العربية التي ترتبط بأحوال التخاطب والظروف المحيطة به مما له علاقة مع البيان " وهذا من شأنه أن يؤدي إلى الاختلاف في الين والتعدد في التفسير ووجود التأويل^{١٤}."

فإن بحث في دلالة النص نتجائ بينه السطحية إلى محاولة البحث في عبق هذا النص وسر أغواره مما يجرنا إلى الإقرار بتعدد وجوه التفسير للنص الواحد. تميز تناول الشافعي للبيان بنقطتين أساسيتين هما:

- الأولى منهما تكمن في استعماله لمصطلحي: الأصول والفروع،
فالتأويل لا يحصل على مستوى الأصول وإنما يتجلى في الفروع مما
يسمح بتعدد أوجه التأويل والذي بدوره يؤدي إلى الاتساع الذي ينضوي إلى
تنوع وتعدد القراءة.

-- أما الثانية فهي تركيزه على قضية العلم بطرق التعبير في اللغة العربية.

- مفهوم النص من مفهوم البيان عند الجاحظ:

مثلت جهود عمرو بن بحر الجاحظ محاولة لرصد شروط إنتاج الخطاب، وقد عني بالكتابة عناية كبيرة ولم يتنى له هذا إلا من عنده الجاد " بضرورة أن تقوم الكتابة والكتاب بديلاً حضارياً عن اللفظ والذاكرة^{١٥}، إذ هي محاولة جادة منه لتل التقاط العربية من

مستوى الشفافية إلى مستوى الكتابة، لحمايتها من السيان والحريف، ف "لولا" الكتب الملوونة والأخبار المحللة (..) لظل أكثر العلم ولعلب سلطان السيان على سلطان الذكر^{xiv}.

يلقي مفهوم اليان عند الجاحظ مع مفهوم النص إذ كل منهما يقيد الضهور، وكان تناول الجاحظ لليان سابقاً على عصره، ولقد جاء في هذا المضمار قوله: "والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو اليان وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت العجم، واليان اسم جمع لكل شيء كشف لث قاع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفتني السامع إلى حقيقته ويهجم على محسوله كما ما كان ذلك اليان ومن أي جنس كان، لذلك، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى فذلك هو اليان"^{xv}.

فتناول الجاحظ لليان جاء مستفيضاً طرق فيه جملة من الحيات المتعلقة بمعرفة الحقيقة التي تمكن السامع من الإمسك بالدلالة. فالجاحظ كان اكتشفه لأهمية انبان عملاً مبكراً سبقاً فهو لم يترك جانب من جوانب التوصل إلا وعالجها، فاهتم بالثبوت والمتلقي، وبالرسالة ووسائل نقلها، ككتابة ومشافهة وإشارة: فالإنسان "خالق الرموز، يرتحل باستمرار في عالم الكلمات، والارتحال لا يعني دوماً خلق رموز جديدة أو تسمية أشياء لم تسم بعد، وإنما يعني القدرة على فرض أسرار اللغة، القدرة على اكتشاف كل أبعاد التسميات وتعميق مدلولات الألفاظ والعبور إلى حقول دلالية جديدة؛ إنه العبور حيث لا يظن اللامعنى وتأويل ما قد أُقِلَّ والنفاذ إلى ما لم يُقَلْ، ولا جدوى برأبي من الحديث عن معجزة بانية بعيداً عن هذا الفهم، أي عن الوجوه الكثيرة الكلام وعن الاحتمالات المتعددة للمعاني عما يسمى فسحة القول واتساع النص"^{xvi}، فالبحث في أغوار النص يستلحي التفسير والنشر والتأويل للتعامل معه والإمسك ببعض مدلولاته، مما يؤكد أن النص ليس بواحد وإنما هو متعدد الوجوه.

الهوامش:

- ¹ - ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مصر، مائة، دس.
- ² - ينظر إسماعيل بن محمد الجوهري، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، مع أحمد عبد الغني عطار، دار المعلم للناشرين، بيروت، ط3، 1984، ج6، ص 1058 - 1059.
- ³ - ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مصر، مائة (تسعة).
- ⁴ - علي حرب، الحقيقة والمجاز، نظرة لغوية في العقل واللبس، دراسات عربية حول اللفظ، عدد 6، سنة 1983، ص 41.
- ⁵ - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1994، ص 09.
- ⁶ - ينظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، بيروت، 1996، ص 13، 14.
- ⁷ - محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص 20.
- ⁸ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص 22.
- ⁹ - محمد بن إبراهيم الشافعي، الرسالة، نج أحمد شاكر، القاهرة، 1940، ص 20.
- ¹⁰ - وسطر محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص 22.
- ¹¹ - الإمام الشافعي، الرسالة الشافعية، نج أحمد شاكر، القاهرة، 1940، ص 52.
- ¹² - ينظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص 24.
- ¹³ - سير إبراهيم، مفهوم النص في افكار الشافعي العربي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 23، العدد الأول (2007)، ص 97.
- ¹⁴ - حمادي صمود، التفكير البلاغي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2010، ص 138.
- ¹⁵ - الحافظ، الحيوة، نج: عبد السلام هارون، دار النجيب، بيروت، 1996، ط2، ج 1، ص 41.
- ¹⁶ - الحافظ، البيان والتبيين، نج: حسن النوسي، دار المعارف، تونس، 1998، 75/1.
- ¹⁷ - علي حرب، الحقيقة والمجاز، نظرة لغوية في العقل واللبس، دراسات عربية حول اللفظ، عدد 6، سنة 1983، ص 40.